**جمهورية العراق/ بغداد**

**الجامعة المستنصرية – كلية الآداب**

**قسم اللغة العربية/ المرحلة الثَّالثة - مسائي**

**أُستاذ المادة: أ.م.د قصي عدنان الحسيني**

**مادة: الأدب الأندلسي**

المحاضرة الأولى

تسمية الأندلس ونسيجها الاجتماعي قبل الفتح

أصل كلمة الأندلس:

سميت شبه الجزيرة الآيبرية قبل الفتح الإسلامي بهذا الاسم؛ نسبة إلى الآيبريين الَّذين كانوا يسكنونها، الَّتي تشمل اليوم (إسبانيا والبرتغال).

وعندما حكمها الفينيقيون أطلقوا عليها اسم (إسبانيا) ويعني باللغة الرومانية "شاطئ الأرانب"، وقيل في تعليل هذه التسمية أن الفينيقيين حين نزلوا شواطئ آيبيريا شاهدوا عدداً كبيراً من الأرانب.

وحين سكن "الوندال" بعد الرومان شبه الجزيرة هذه أطلقوا عليها اسم (فاندالسيا) أو (أندليسيا)، والواندال: قبائل جرمانية من الشمال اجتاحت أوربا في القرن الخامس الميلادي، واستقرت في السهل الجنوبي الإسباني، وحين فتح المسلمون هذه البلاد عرّبوا هذا الاسم إلى "أندلس".

وقيل أّنَّهم أخذوا اسم الأندلس من لفظ (الوندالس) وهو: اسم قبائل البربر الأندلس من لفظ (الوندالس) وهو: اسم قبائل البربر التي سكنت في جنوب إسبانيا، فنسبوا شبه الجزيرة كلها إلى هذه القبائل التي سكنت في جنوب إسبانيا، فقالوا: (شبه جزيرة الوندالس) وبمرور الزمن خُفِفَتْ هذه الكلمة، واختصرت فأصبحت "الأندلس"، وقد يُطلق على الأندلس "جزيرة الأندلس" علماً أنها شبه جزيرة، وإنّما سُميت "جزيرة" بالغلبة كما سُميت جزيرة العرب، وهي شبه جزيرة.

ومما سبق يمكن أن يقال أن هذه الكلمة قد مرّت في ثلاثة أدوار صوتية هي:

ـ **المرحلة الأولى: "فندلس".**

**ـوالمرحلة الثانية: "وندلس".**

ـ **والمرحلة الأخيرة: "أندلس"،** وهذا التطور ليس غريباً على طبيعة اللغة العربية. وبقي اسم الأندلس حيّاً حتى بعد خروج المسلمين منها وسقوطها بيد النصارى، إلَّا أنه دخل عليه تطور جديد، فأصبح في اللغة الإسبانية (أندلثيا)، وصار يعني جنوب شبه الجزيرة فقط، وهي المنطقة التي تشمل حتى اليوم ولايات: "قرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة".

ومن التعليلات التي ذهب إليها بعض المؤرخين الأندلسيين القدامى لهذه التسمية تعليل ابن سعيد المغربي "أبو الحسن علي بن موسى بن سعيد المغربي الأندلسي (ت685هـ)، فقد نقل عنه شهاب الدِّين أحمد بن محمَّد المقّري التلمساني (ت 1041هـ) في "نفح الطِيب من غصن الأندلس الرَّطيب وذكر وزيرها لسان الدِّين ابن الخطيب" قوله: سمَّاها (بالأندلس بنو طوبال بن يافث بن نوح؛ لأنَّه نزلها)، وهو تعليل أسطوري، كما يرى الدكتور سامي العاني في كتابه "دراسات أندلسية" ط 1978م.

أما التعليل الثاني فهو أقرب إلى العلم قال به الرازي فقد نقل عنه المقّريّ في النفح أيضا قوله: وأول من سكن بالأندلس على قديم الأيام قوم يعرفون بـ "الأندلش" معجمة الشين، بهم سُمي المكان، فعُرِّب فيما بعد بالسين غير المعجمة، ونقل عنه الحميري (ت 866 هـ)، في كتابه "الروض المعطار في خبر الأقطار" تح: الدُّكتور إحسان عبّاس.

**جغرافية الأندلس**

تقع شبه جزيرة آيبيريا "الأندلس" في جنوب غربي أوروبا يحدّها من الشرق البحر المتوسط، ومن الغرب المحيط الأطلسي، ويفصلها عن جنوب فرنسا من جهتها الشمالية سلسلة جبال "البرت والبرانس"، وهي سلسلة من الجبال تتخللها ممرات ومضايق تصل بين البلدين مثل ممر "هندايا" في الغرب وممر "قطلونيا" في الشرق، وممر "شزورا" في الوسط.

ويفصلها عن أفريقيا من الجهة الجنوبية "مضيق جبل طارق" الذي يبلغ عرضه من الشرق إلى الغرب 13 ــ 16 كم، وتقع على هذا المضيق بعض مدن المغرب الأقصى.

ويتكون المضيق من مزيج من مياه البحر المتوسط والأطلسي، وكان المسلمون يطلقون عليه اسم بحر "الزقاق"، وقد عُرف باسم مضيق جبل طارق بعد الفتح الإسلامي وإلى يومنا هذا.

ويتألف سطح شبه جزيرة الأندلس من عدة هضبات تتخللها أكثر من سلسلة من الجبال، وقد تقع بينها بعض الأقاليم السهلية والوديان.

وتخترق بلاد الأندلس أنهار متعددة أهمها نهر "الوادي الكبير" الذي يمر بالمدينتين الأندلسيتين العظيمتين "قرطبة وإشبيلية"، ويليه في شمال الأندلس نهر "وادي يانه"، وفي الشمال " نهر التاجه"، وتقع مدينة "طليطلة" ونهر "دوبره"، وهذه الأنهار جميعاً تصب في البحر المتوسط مثل نهر "إبره" الذي يمر بمدينة "بلنسيه" ونهر "شقر"، وتقع عليه جزيرة "شقر" ذات الطبيعة الفاتنة لكثير من شعراء الأندلس، وأكثر بقاع الأندلس خصباً، وأحسنها مناخاً الأقاليم التي فضل المسلمون الحياة فيها، وهي السهول الجنوبية والشرقية والغربية

أما الأقاليم التي تقع ضمن الهضبة الكبرى الممتدة نحو الشمال فهي وعرة، وذات مناخ قاسٍ شحيحة المياه، ومثل هذا في أواسط الأندلس، فتحيط بمدينة مجريط " مدريد " هضبات قاحلة ذات مناخ قاسٍ، فهي مثلجة شتاءً، وحارة جافة صيفاً.

ومن أبرز مدن الأندلس "قرطبة وإشبيلية وغرناطة ومالقة وطليطلة وبلنسية والمرية"، وقد فُتِن شعراء الأندلس بمدنهم، وتغنوا بجمالها ومحاسنها، فقال شاعرهم في وصف غرناطة:

**غرنــاطــةُ مـا لهــا نظيـــر ما مصرُ؟ ما الشَّامُ؟ ما العراقُ؟**

**مـاهــي إلَّا العـــروسُ تجلـى وتلك مــــن جملـــة الصِّــــداقُ**

وفي قرطبة يقول أحد العلماء الشعراء من الأندلسيين وهو أبو محمّد بن عطيّة المحاربي:

**بأربع فاقتْ الأمصارَ قرطبةُ منهنَّ قنطرةَ الوادي وجامِعُها**

**هاتان ثنتان والـزَّهـرةُ ثالثـةٌ والعِلْمُ أعظمُ شيءٍ وهو رابِعُها**

وفي قرطاجنة يقول ابن اللبَّانة:

**بلدٌ أعارتهُ الحمامةُ طوقَها وكساهُ حلةً رِيشِهِ الطَّاووسُ**

**فكأنمــا الأنهارُ فيـه مدامةٌ وكأنّ ساحات الدِّيار كؤوسُ**

وكما اختلفت الأجواء اختلفت حاصلات الأندلس، فتجمعت في أرجائها معظم حاصلات العالم ففيها القمح والشعير والأرز والبقول والفواكه والكروم والموالح والزيتون، والأندلس غنية بمناجمها المعدنية ومراعيها.

وقد أكثر العلماء في تفضيلها، وتوسعوا في تعداد محاسنها، وبيان مزاياها ففي كتاب "نفح الطيب" ورد ما يأتي:

(طولُ الأندلس ثلاثون يوماً، وعرضها تسعةُ أيام، ويَشُقُّها أربعونَ نهراً كباراً، وبها من العيون والحمّاماتَ والمعادنِ ما لا يُحصى، وبها ثمانونَ مدينةً من القواعد الكبار، وأزيدَ من ثلاثمئةِ من المتوسطة، وفيها من الحصونِ والقرى والبروجِ ما لا يُحصى كثرةً حتى قيل:

إنّ عدد القرى التي على نهر أشبيلية اثنا عشر قرية، وليس في معمور الأرض صقع يجد المسافر فيه ثلاث مدن، وأربعاً من يومه إلا بالأندلس، ومن بركتها أن المسافر لا يسافر فيها ثلاثة أميال، وقيل ستة من دون ماء أصلاً، وحيثما سار من الأقطار يجد الحوانيت في الفلوات والصحارى والأودية ورؤوس الجبال؛ ليبيع الخبز والفواكه والجبن واللحم والحوت، وغير ذلك من ضروب الأطعمة).

وقال محمَّد بن عبد المنعم الحميري ت 866هـ في الروض المعطار:

(والأندلسُ شاميةٌ في طبيعتها وهوائها، يمانيةٌ في اعتدالها واستوائها، هنديةٌ في عطرها وذكائها، أهوازيةٌ في عظم جناَّتها، صينيةٌ في جواهر معادنها، عدنيةٌ في منافع سواحلها).

**إسبانيا قبل الفتح الإسلامي**

لقد كانت إسبانيا قبل الفتح الإسلامي ولاية تابعة للحكم الرُّوماني، إذ حكمته من القرن الثَّاني عشر قبل الميلاد وحتَّى القرن الخامس الميلادي، ثُمَّ جاء دور "القوط" فقضوا على القبائل الجرمانية قبل سيطرتهم على عموم شبه الجزيرة الآيبرية، وأسسوا ملكاً كبيراً عاصمته "طُليطلة"، واستمر حكم "القوط" حتَّى الفتح الإسلامي، وكانت الدِّيانة النصرانية هي السَّائدة عندهم، وانصرف هؤلاء إلى الملذات واللهو، ولم يهتمُّوا بشؤون البلاد فضلاً عن شؤون العباد، واستحالت أغلب طبقات الشَّعب إلى عبيد مسحوقين في الأيام الأخيرة من حكمهم، وقُبيل الفتح العربي الإسلامي شهدت إسبانيا ضعفاً سياسياً واجتماعياً كبيرين، واضطراباً في نظام الحكم، وعمل الاستبداد والطغيان على تغذية ذلك النِّظام ما أدَّى إلى الإسراع في تقويض أركانه، وحينها كان الشعب يَئِنُّ تحت وطأة الصراع الطبقي القاتل الذي يطحن الطبقات الشعبية الفقيرة المُستَغَلَّة، وكان المجتمع يومذاك منقسماً على طبقات سيطر بعضها على بعض، وهي على النحو الآتي:

1 ـ **الطَّبقة الحاكمة**: التي تتكون من الملك والنبلاء، ونفوذ هؤلاء غير محدود وممتلكاتهم التي يتمتعون بخيراتها، وفوق هذا فهي معفاة من الضرائب.

2 ـ **طبقة رجال الكنيسة**: وهي تشارك الطبقة الأولى في إدارة دفَّة الحكم، ونفوذها غير محدود أيضاً؛ لأن الكنيسة كانت مسيطرة أبَّان العصور الوسطى على كل أمور الحياة، ولرجال الدِّين قداسة قد جعلت بعض أفراد الشعب يعتقدون أن بإمكانهم أن يدخلونهم الجنَّة أو النَّار.

3 ـ **الطَّبقة المتوسطة**: تتألف من التُّجار والزُّرَّاع والمُلَّاك الصِّغار، وهي الطَّبقة المستنيرة التي كان من الممكن أن تقوم بدور فعّال في مجتمع القوط إلَّا أنَّ عدد هذه الطَّبقة قليل، وهي مثقلة بالضَّرائب والمضايقات من لدن الطَّبقات المذكورة آنفاً.

4 ـ **طبقة الضُّعفاء المُسْتَغَلَّيِن:** وتشكل هذه الطبقة الغالبية العظمى من أبناء الشَّعب، ولكنَّها أقل الطَّبقات حقوقاً، وأكثرها واجبات، يشتغل بعضهم في مزارع النُّبلاء ورجال الدِّين، فهم عبيد لهؤلاء المالكين، ينتقلون مع الأرض، ويُباعون معها إذا بِيعَت، ومع هؤلاء جماعات من العبيد يُضاعف عددها (الأسر) في الحروب.

5 ـ **طبقة اليهود**: وكان عدد هؤلاء كبيراً أيضاً، وهم يسيطرون على ثروات البلاد وأموالها، ويعملون في دواوين الدَّولة الحسابية، لكنهم كانوا مَمْقُوتِين من أبناء الشعب القوطي؛ لاختلاف عقيدتهم مع القوط، واستغلال الفقراء عن طريق الرِّبا، فتعرضت حياتهم لهزات دائمة اضطرتهم في كثير من الأحيان إلى التآمر والتشوف إلى ما وراء الحدود؛ لقلب نظام الحكم، وكان هؤلاء على اتصال دائم بالجاليات اليهودية خارج إسبانيا.

هذا الوضع الاجتماعي المهزوز كان مدعاة لتفكك الجانب الاجتماعي والاقتصادي في مجتمع القوط، أما الجانب السِّياسي فلم يكن أقلَّ تفككاً واضطراباً.